تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

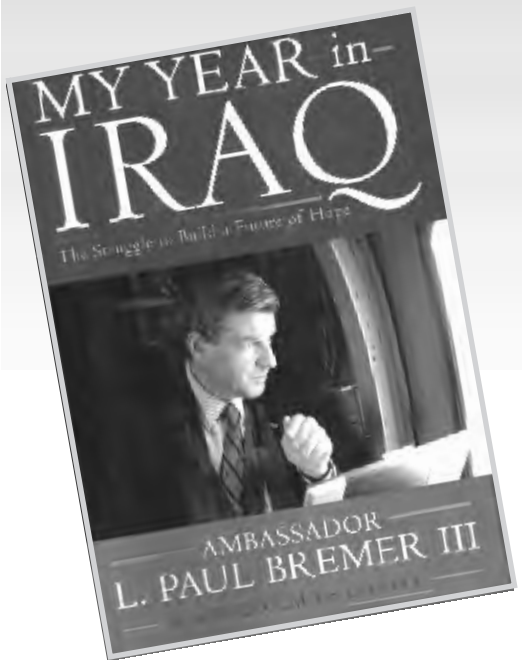

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة الحادية و العشرون)

"أنا أعي الموقع المهم الذي كانت تشغله المرأة في المجتمع العراقي. أطلعني العديد من أصدقائي العراقيين، وبشيء من التأثّر العاطفي، كيف أن النسوة العراقيات لعبن دوراً فريداً هنا في العالم الإسلامي، خلال الأربعينيات والخمسينيات. أنا أنتظر أن تشارك المرأة العراقية في الحياة السياسية، وأراهن عليكن وعلى زملائكن للمساعدة في اختيار النسوة اللواتي بإمكانهنّ المشاركة في الحكومة الانتقالية."

كانت بعض النسوة يجلسن حول طاولة طويلة، وأخريات يقفن وراءهن. العديد منهن عبّرن عن سعادتهن لتأكيدنا على قضايا المرأة. أخريات بدأن يتحدّثن عن مخاوفهنّ وآمالهنّ حيال مستقبل العراق.

فجأة، وبعد حوالي عشرين دقيقة، وقفت إحداهن، وهي عضو في الاتحاد النسائي العراقي، وهي منظمة جماعية، كان صدام يتحمّلها تارة، ويقمعها تارة أخرى، صرخت قائلة، "توجد بعثيتان هنا في هذه الغرفة!"

امرأة أخرى، واقفة على الطرف المقابل من الغرفة، وهي الهدف الظاهري لهذا الاتهام، ردّت بأعلى صوتها، "إذا كانت هذه هي روح الاجتماعات، فهذا غير جيد لمستقبل العراق."

وانفضّ الاجتماع حين بدأت كل منهنّ تدلي بدلوها. ولم يستطع مترجمي أن يتابع كل هذه الانفعالات. واستطعت، بعد جهد، أن أفرض بعض النظام، وقلت للنسوة بأننا سنملك الفرصة الكافية لمناقشة هذا الموضوع لاحقاً. ولكن، ما كنّ يسعين إلى فعله الآن هو إيجاد طريقة لتنظيم أنفسهن، وتشكيل لجنة يمكنها أن تعمل معنا للدعوة إلى مؤتمر وطني للمرأة.

ولحسن الحظ، بعد أن غادرتُ، استطاعت المشاركات أن يخترن لجنة قيادية ساعدت في التحضير لأول مؤتمر وطني للمرأة في التاسع من تموز. ولكن هذا الاجتماع أظهر مرة أخرى كم كانت قريبة على السطح مشاعر المرارة من سنوات حكم صدام.

استمرّت اجتماعاتي الأولى مع مجموعة السبع، ومعظمها لم يكن مشجّعاً. بعد جلستي الأولى، أعطيتهم أسبوعين للإتيان بأفكار عن كيفية توسيع مجموعتهم، بحيث تصبح أكثر تمثيلاً. في منتصف حزيران، عقدتُ اجتماعاً آخر معهم، وذكّرتهم بالتحدّي الذي كنتُ واجهتهم به. وعلمتُ بأنهم فشلوا.

جلسنا مرة أخرى حول الطاولة المربّعة الضخمة في غرفة الاجتماعات في القصر.

"سوف يستمرّ التحالف بالبحث عن ممثلين إضافيين،" قلتُ. "ننوي تعيين إدارة انتقالية في الأسابيع الأربعة أو الستة القادمة." كان القطار يتأهّب للانطلاق.

طرحتُ طائفة من القضايا التي تشغل بال التحالف، والتي كنّا نريد معرفة آراء العراقيين المسؤولين بها. كان يتوجّب على التحالف اتخاذ قرارات بشأن طرح العملة الجديدة. ماذا كانت آراؤهم؟ كنا نعتقد بأنها سترفع القيود عن الاستثمار الأجنبي. هل كانوا يوافقون؟ كنا نريد أن نشجّع التأسيس المبكّر لخدمة هاتف خليوي. ماذا كانت نصيحتهم؟ وكنا أيضاً نواجه قضايا متعلقة بإصلاح النظامين القضائي والتعليمي، وكيف ومتى نجري إحصاءً عاماً. الأكثر أهمية من ذلك، كنا نحتاج من العراقيين العارفين إلى نصيحة حول عملية تشكيل جيش عراقي جديد، وتدريب عدد كاف من أفراد الشرطة.

"أرحبُ بنصيحة ومساعدة هذه المجموعة حول طيف واسع من القضايا التي يواجهها التحالف،" قلتُ لأعضاء المجموعة السبع، ولفريق مستشاريهم. "تشكل هذه تحدّيات جوهرية متعلقة بمستقبل بلادكم." قلة قليلة منهم كانت معتادة على تقديم نصائح عقلانية مدروسة حول قضايا جادة وخطيرة.

مثلما أشار رايان بعد الاجتماع، "هؤلاء معتادون على رؤية أنفسهم كمعارضة، وليس كأشخاص قادرين على اتخاذ القرارات."

كنتُ أريد لهذا أن يتغيّر. وإذا كان للعراق أن يمشي قدماً، لابدّ للتغيير أن يحدث.

كان هذا جزءاً من برنامجي: "اعمل، تلعبُ دوراً". أي إذا كانوا يريدون أن يلعبوا دوراً في التحول السياسي للبلاد، يجب على هؤلاء الساسة أن يعملوا.

"القصدُ،" قلتُ لفرانسي في رسالتي الإلكترونية تلك الليلة، "أنه توجد قضايا جادّة وخطيرة عليهم التصدي، لها عوضاً عن التفكير الحالم بنوع المنصب الذي سيشغلونه خلال الفترة الانتقالية، أو نوع السيارة التي سيطلبونها."

لكن مجموعة السبع رسبت في الامتحان مرة أخرى. لم يكونوا، بكل بساطة، يسمحون بالانتقاص من سلطتهم. وكانت حاجة المجموعة الماسّة للتوافق تمنعها من الخروج بتوصية ولو واحدة بخصوص أي من القضايا التي طرحناها أمامهم. وكان هذا ينذر بمزيد من الصعوبات القادمة.

وبدأ يخطر في أذهان بعض أعضاء مجموعة السبع بأنّ مسؤولي الأمم المتحدة، ونحن، جادون بشأن تشكيل إدارة انتقالية، وأنّ سلطتهم ستذوب في مجلس أوسع. بعض هؤلاء لم يكن يروق لهم هذا الاحتمال. كان الجلبي قد أخبر سكوت، في أواخر أيار، بأنه عائد إلى أمريكا من أجل حضور حفل تخرّج ابنته في جامعة هارفارد. وتوقعت أنه سوف يمضي بعض الوقت في واشنطن، يبذل فيها جهوداً لإفشال خطتنا بخصوص تشكيل حكومة أكثر تمثيلاً.

في هذه الأثناء، كنتُ أزداد معرفةً واحتراماً لسيرجيو دي ميلو. كان يتمتع بحسّ ظريف من السخرية، وبضحكة دافئة. كنتُ أطلعهُ على خططنا، أولاً بأول، بشأن تشكيل إدارة انتقالية بحلول منتصف تموز. وكان يُطلعني بشكل منتظم عن مناقشاته مع العراقيين. ذات يوم دعاني إلى غداء في مقر الأمم المتحدة، في فندق القناة. وفيما كنا نتناول طعاماً عراقياً، مبهراً بشكل جيد، ونحتسي بيرة برازيلية لذيذة، أطلعتُ سيرجيو على آخر مناقشاتنا.

"إنها خطة جيدة، يا جري" قال. "لن أفعل أي شيء يعيق التحالف."

"ولكن يا سيرجيو،" قلتُ محذّراً، "لا تحظى الأمم المتحدة بحبّ الجميع هنا. يعتقد الكثير من العراقيين بأنها كانت تدعم صدام حسين، وغضّت الطرف عن الفساد الذي أحاط ببرنامج النفط مقابل الغذاء."

أومأ برأسه.لم تكن هذه الأخبار بالجديدة عليه، كما تكهّنت. "حسن، علينا أن نستعيدَ ثقةَ الناس، بالكلام والممارسة معاً."

الآن، يبدو أنّ الأمم المتحدة والتحالف يسيران على مسار واحد، وأنّ دي ميلو لن يعقّد مهمة التوصّل إلى حكومة انتقالية.

وحيث أن حرارة الصيف بدأت تضرب أطنابها، انهمك فريقنا البريطاني-الأمريكي بالعمل ليل نهار لإيجاد مرشحين سياسيين للحكومة الجديدة. كان العديد من الخبراء والديبلوماسيين الأمريكيين والبريطانيين، بل القسم الأعظم منهم يمتلك خبرة في المنطقة، ويتقن اللغة العربية، وقد تنقّلوا في عرض البلاد وطولها، باحثين عن مرشحين بين مجموعات عشائرية وسياسية ودينية، ومن الأقليات العرقية، من أجل الحكومة الانتقالية. وبالتدريج، استطاع الفريق التعرّف إلى نساء وزعماء دين وعشائر، نستطيع النظر بعضويتهم في الحكومة. قررنا أن نسمّي الحكومة الانتقالية ب "مجلس الحكم العراقي،" وهذا اعتراف بالسلطات التي ننوي إناطتها بالمجموعة.

في أواخر حزيران، حضرَ المدّعي لوراثة عرش العراق، المنقرض منذ زمن بعيد، من أجل عقد اجتماع معي. كانت الملكية في العراق، والتي أوجدها البريطانيون في العشرينيات، محصورة بالعائلة الهاشمية (والتي لا تزال تحكم في الأردن)، حتى قيام انقلاب دموي في عام ١٩٥٨، الشريف حسين بن علي رجل نحيل، أنيق، بشعر أسود فاحم، وشارب "إيرول فلين". إبان سقوط الملكية، أُبعدَ الشريف بن علي، وهو الآن في أواخر الأربعينيات من عمره، عن العراق، على يد عائلته، وهو لما يزل طفلاً. منذ ذلك الحين، عاش في إنكلترا في وضع جيد، وهذا بادٍ عليه. لم يكن يذكّر المرء بالصورة النمطية للرجل العراقي، مرتدياً بزّته من ماركة "سافيل رو"، والتي لابد أنها كلّفته آلاف الدولارات، وحذاء إيطالياً باهظ الثمن، وساعة رولكس، وتفوح من ثيابه عطور ما بعد الحلاقة. ناهيك أنه يتكلّم بلغة إنكليزية صافية. كان قد عاد إلى بغداد على متن طائرة خاصة، يرافقه أكثر من سبعين شخصاً.

وبشكل غير مثير للدهشة، كان الشريف علي قد وافق على أن مجموعة السبع ليست ممثلة، وأنّ انتخابات مبكرة ليست ممكنة، وغير حكيمة.

"إنها ستأتي بالمتطرفين فحسب،" قال لي، بنبرة مدير مدرسة يخاطب تلميذاً. "ولكن، ضع في اعتبارك، حضرة السفير، أنا أفضل استفتاءً مبكّراً على شكل الحكومة- هل نعود إلى الملكية أم لا؟" وأضاف أن الحكومة الانتقالية ستواجه "وقتاً عصيباً."

"كلا، لن تكون سهلة،" قلتُ موافقاً. "ولكن هذه هي الطريقة التي تعمل بها الديموقراطية."

ومع انتهاء شهر حزيران، استمرّ بعض أعضاء مجموعة السبع يقاومون فكرة توسيع دائرة الحكومة الجديدة. علمتُ أنه في إحدى هذه الاجتماعات، كان القائد الكردي جلال الطالباني قد أعدّ خطة استباقية لإجهاض مجلس الحكم، من خلال دفع مجموعة السبع إلى الدعوة إلى "مؤتمر وطني" يتمّ انتقاؤه باليد، ينعقد من أجل اختيار الحكومة الجديدة. كان هذا يهدد بتقويض الوحدة الوطنية التي كنا نسعى إلى تحقيقها.

في اجتماع معي، في اليوم التالي، وعد الطالباني، وهو محاور سياسي جيد، لكنه يفتقر إلى الدقة أحياناً، بأنه معنا "مئة بالمئة،" بالرغم من معارضته القوية خلف الكواليس قبل يوم واحد فقط. سوف نتعلم لاحقاً أنه من المفيد أن نحمّل الطالباني مسؤولية ما يتّخذه من مواقف، إذا أردنا أن نتعامل معه بشكل جدي.

بعد أيام قليلة، دعاني عبد العزيز الحكيم، مسؤول المجلس الشيعي الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، إلى غداء في بيته، على ضفاف نهر دجلة. وبعد وجبة ممتازة، انفردنا بلقاء ثنائي في غرفة الاجتماعات. وفيما كان يدخّن تبغاً عراقياً، رحنا نحتسي الشاي، ونتحدث في السياسة.

في لقاءاتنا السابقة، كان الحكيم يعارض باستمرار فكرة توسيع مجموعة السبع إلى مجلس حكم أكثر تمثيلاً. في هذا اليوم بدا متأرجحاً. كنتُ وفريق مستشاريي نريد حزبه أن يكون في مجلس الحكم. ولكن إذا ارتأوا أن يظلوا خارجه، فهذا هو خيارهم. لم نكن نريد للتحالف أن يظهر وكأنه أقصى مجموعة شيعية هامّة، وإن كان البعض يعتبرها إشكالية.

جلال طالباني

عبد العزيز الحكيم

بول بريمر

سيرجيو دي ميلو

يتبع